الاقليات كورقة في الصراعات الدولية : قضية اوسيتيا الجنوبية انموذجا

د. حازم عبد الحميد النعيمي

مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية

استخدمت الامم الكبيرة القوية ودولها،عبر التاريخ ، الامم الصغيرة الضعيفة ودولها كمادة للتنازع في سبيل السيطرة عليها واعتبارها مناطق نفوذ لاحداها . وبذلك يتوجب خضوعها لهيمنتها وتبعيتها لسياستها ، والوقوف معها في مناوئة القوة او القوى الكبيرة الاخرى المنافسة ، بغض النظر عن مصالح الامة الصغيرة وتطورها ومستقبلها، والضرر الذي قد يلحق بها من جراء هذه التبعية . وهكذا كان الامر دائما وحتى اليوم،حيث يتم تلاعب الدول الكبرى بحياة ومصائر الامم الصغيرة واستغلالها ستراتيجيا وسياسيا واقتصاديا وحتى على الاصعدة الاجتماعية والثقافية .

ولم يحدث تغير جوهري لهذه الاستراتيجية في السياسة والعلاقات الدولية ابان العصر الحديث ، اي التزام بمبدأ التنازع بين الدول الكبرى على مناطق النفوذ والهيمنة،اي عل الدول الصغيرة واستغلالها ، ووضعها كسواتر ودروع لحماية الدولة الكبيرة المهيمنة عليها .بل تزايد هذا التنازع على اثر النهضة التجارية والصناعية ومرحلة الاستعمار الكولنيالي ، سواء في حقبة الاقطاب الكبيرة المتعددة قبل الحرب العالمية الاولى ومرحلة مابين الحربين العالميتين، ثم في حقبة القطبين (امريكا والاتحاد السوفيتي) والحرب الباردة اثر الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي وتسيد حقبة القطب الاكبر الوحيد والاقطاب من الدرجة الثانية المتعددة المتنافسة بعد عام1991،وصعودا حتى السنوات الاخيرة من العقد الاول للقرن الواحد والعشرين والتي نعيشها حاليا .

وفي بحثنا الذي سيعتمد المنهج الوصفي التحليلي للاحداث والسياسات العامة والدولية ، سيكون الموضوع ذاته ، اي استغلال الدول الكبرى والقوية والغنية للدول والامم والاقليات الصغيرة والضعيفة والفقيرة باشكال عديدة لاعلاقة لها بمصالح هذه الامم بل فقط بمصالح الدول الكبرى المتحكمة ، وهذا في الغالب والاعم يؤدي الى الاضرار باستقلالية هذه الامم الصغيرة ومصالحها ومستقبل تطورها وتقدمها . وسنسعى الى تبين هل حدث تغير حقيقي في هذه الاستراتيجيات

الاستغلالية اثر انتهاء الحرب الباردة ، ام ان المرتكزات ماتزال على حالها ومنذ بدايات التاريخ المكتوب وحتى الان . ولكي يكون جواب السؤال او توضيح المشكلة جليا ، نتعرض لنموذج تطبيقي ، وهو نموذج اقليم اوسيتيا الجنوبية التابعة اجمهورية جورجيا ، المحاذيات لحدود روسيا الجنوبية في منطقة القوزاق .

اولا : التطور التاريخي لستراتيجية الهيمنة

فرضت الامم الكبيرة منذ بدايات دولها وامبراطورياتها الكبرى هيمنتها وسيطرتها واستغلالها على الامم الصغيرة المجاورة لها . واستخدمت معها سياسات مختلفة تبدأ بالضم لاراضيها وصهر مجتمعاتها داخل ثقافتها ومن ثم داخل امتها الكبيرة ، او جعلها تابعة لها من جميع الوجوه وعلى الاخص الادارية والاقتصادية ، او فرض الضائب عليها واجبارها على المشاركة في الحروب الامبراطورية وتجنيد ابناءها لصالح نصرة الدولة – الامة الكبرى المهيمنة في سعاها الحربي ضد الامم الكبرى الاخرى . ومن الامثلة التاريخية على ذلك الامبراطوريات القديمة في وادي الرافدين وفارس ومصر والصين ،ومن ثم الامبراطوريات الاغريقية والرومانية ، وصولا الى العصور الوسطى وصعود الامبراطوريات العربية والتركمانية .[1]

وفي العصر الحديث ومع بداية عصر التنوير الفكري وبناء الدولة – القديمة الحديثة ، والاستكشافات الجغرافية ، وانطلاق الصناعة والتجارة ، وبدء الفتوحات والاستعمار ، انتقلت ستراتيجية هيمنة الامم – الدول الكبرى على الامم – الدول الصغرى الى محاور وسياقات وسياسات جديدة .[2] اذ شعرت الدول الرأسمالية الاوربية بالحاجة الى مرتكزات جيوبوليتكية جديدة تساعدها في نهضتها الكبرى لتطوير صناعتها وتجارتها ، وعليه فقد بدأت في البحث عن مناطق تبني عليها مستعمراتها ، لتكون مثابة للهيمنة على ما يجاورها[3].ومن الطبيعي ان تستغل الدول الصناعية الكبرى هذه المناطق وشعوبها ناهبة لثرواتها ومهيمنة على اسواقها ، ومحولة لقدراتها ومواطنيها الى مواد داعمة لها في حروبها ومنافساتها للدول الكبرى الاخرى. ولعل ابرز نموذج لهذا الاستغلال والهيمنة نموذج لهذا استعمار بريطانيا لشبه القارة الهندية[4].

وانتشرت المستعمرات الاوربية الاستيطانية والاحتلالية – الكولنيالية والمهيمنة سياسيا واقتصاديا في قارات العالم اجمع ، في الامريكيتين الشمالية والجنوبية وافريقيا واسيا . وتصارعت الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة على مصادر الطاقة والمواد الاولية والايدي العاملة والاسواق

ومراكز التجارة في هذه المناطق – الدول – الامم الصغيرة والفقيرة . واستخدم او دفع ابناء هذه الامم لمحاربة بعضهم البعض داخل المنطقة الواحدة او لما يجاورها من مناطق وامم بغية اخضاعهم لسيطرة الدولة الكبرى المستعمرة . ومن ذلك استخدام الصينين للسيطرة على شرق اسيا ، والهنود على وسط اسيا وشرقها .

وبلغ استحدام الامم الصغيرة في الصراع اشده مع دخول الامم الكبرى في صراع الحرب العالمية الاولى ، اذ ذاقت حتى الشعوب والامم الصغيرة في اوربا مرارة التلاعب بها واستخدامها وابناءها كمادة في حرب لامصلحة لها فيها ، ولم يقتصر الامر بذلك على شعوب اسيا وافريقيا . واستمرت الصراعات الحربية الدموية ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية . اذ توصلت حتى تجلياتها في الخسائر الكبرى التي طالت البلدان الصغيرة وابناءها في الحرب العالمية الثانية ، والتي ادت في النهاية الى تشكيل عالم جديد يقر بتضحيات الامم الصغيرة التي قدمت بلا ثمن لصالح الامم الكبرى ، ويعترف بمشروعية الاستقلال والارادة الحرة لهذ الامم .

ثانيا : عصر الحرب الباردة وتوازناتها

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ونتائجها المتمثلة بانتصار جبهة الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفيتي) على جبهة المحور (المانيا ، ايطاليا ، اليابان)تشكل مباشرة عالم جديد احتدم فيه الصراع لغرض هيمنة الدول الكبرى على الدول الصغيرة في اوربا واسيا وافريقيا . ولما كان من نتاجات الحرب الثانية ضعف الدول الاوربية عموما والغربية – الاستمارية منها خصوصا ، وازدياد قوة حركة التحرر الوطني للامم الصغيرة المستعمرة ، مما ادى الى استقلال الكثير من دول اسيا وافريقيا في السنوات التالية للحرب والعقدين التالين وبشكل متتابع ، فقد بدأ عصر "الاستعمارالجديد"الذي تخلى عن الاحتلال والوجود العسكري والادارة الكوليتالية لصالح الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية ، وهو ماتقدمت بنجاح من خلال كل الولايات المتحدة والدول الاوربية الغربية المتحالفة معها او ماسمى بالمعسكر الغربي ، والاتحاد السوفيتي وحلفاءه في اوربا الشرقية وشرق اسيا والذي سمي بالمعسكر الشرقي . وبدأ العالم يشهد صراعا جديدا بين قطبين كبيرين وليس اقطاب متعددة كما كان في بعض دول اوربا الشرقية في نهاية الاربعينات وفي حرب الكوريتين والفيتناميتين في بداية الخمسينات ، ليأخذ مسارات تبتعد عن المواجهة المسلحة وتقترب من ما اطلق عليه لقرابة 40 عاما بعد الحرب الثانية

مصطلح " الحرب الباردة " والتي لم تكن اقل ضررا وفداحة على الدول والامم الصغيرة في اسيا وافريقيا وامريكاالوسطى والجنوبية من الحرب الساخنة او المسلحة .

وانطلق الصراع على الدول الصغيرة للقوتين او القطبين الاعظم من خلال الحرب الباردة وجرى التنازع والتساوم على الامم الصغيرة على وفق ما اطلق عليه " تقاسم مناطق النفوذ " وهو ما فتح الباب لاستراتيجيات جديدة سميت ب " التعايش السلمي " حيث يتم تلافي خطر الحرب عن طريق توحيد الجهود بالمشاورات واللقاءات المستمرة والحوار المباشر بين القوتين الاعظم المختلفتان في الايدلوجية والطوح الكوني[5]. ومن المؤكد ان الحروب الاقليمية (في كوريا وفيتنام والشرق الاوسط) في نهاية الاربعينات واوائل الخمسينات قد دفعت باتجاه الحرب الباردة التي تستمر فيها حالة التوتر ضمن درجة لاتتجاوزها الى الحطوط الحمراء التي قد تؤدي الى مواجهات مسلحة وذرية . كما افضت الى سياسة التعايش السلمي وتقاسم مناطق النفوذ على حساب الدول والشعوب الصغيرة ، وعلى اساس هذه السياسة كثرت حالات الانقلابات العسكرية وعدم الاستقرار السياسي في دول اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وشكلت الاحلاف العسكرية الاقليمية في الشرق الاوسط وجنوب شرق اسيا .

وكانت ستراتيجية الاتحاد السوفيتي[6] تقضي بدعم حركات التحرر ، والتقرب من البلدان والامم الصغيرة . ولعل ابرز التوترات خلال الحرب الباردة والتي كادت ان تصل الى المواجهة بين القوتين الاكبر حرب السويس عام 1956 وازمة كوريا عام 1961 وازمة تشيكسلفاكيا عام 1968 . وكان هناك دائما صراعا مسالحا على شكل حروب اقليمية يجري بالنيابة عن القوتين الاعظم حيث تدفع الدول والامم الصغيرة الى اتونها ، ومن ابرزها حرب فيتنام في الستينات .

ومن ابرز خصائص الحرب الباردة وستراتيجيات التعايش السلمي وتنازع مناطق النفوذ ، والتي تميزت بها هذه المرحلة عن سابقتها ولاحقتها

(1)الصراع الايدلوجي والسياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي .

(2)استمرار التوتر المسيطر عليه من اجل تحقيق النصر الاستراتيجي ، مع الابتعاد عن المواجهة العسكرية المباشرة ، واستبدالها بحروب الاتباع من الدول الصغيرة .

(3)تشكيل الاحلاف العسكرية الكبرى مثل حلف شمال الاطلسي الذي تزعمته الولايات المتحدة وضم دول اوربا الغربية وقام عام 1949 ، وحلف وارشو الذي تزعمه الاتحاد السوفيتي وضم دول اوربا الشرقية .

(4)التنازع على مناطق النفوذ على المستوى العالمي ، في اوربا الغربية والشرقية ، وشرق اسيا ، وجنوبها ووسطها والشرق الاوسط ، وفي افريقيا شمال الصحراء وجنوبها ، وفي اريكا الوسطى والجنوبية . وقد حدثت الكثير من الجروب والانقلابات واثارة المشاكل الداخلية والثورات والحروب الاهلية في دول هذه المناطق بدفع وتحريض ودعم من القوتين الاعظم سعيا لفرض هيمنتها عليها ، وحتى الى المساومة والمقايضة وتبادل الهيمنة على هذه الامم الصغيرة ، دون حساب لارادتها واستقرارها وتنميتها .

(5)تعطيل دور الامم المتحدة التي انشأت بعد الحرب الثانية كمنظمة عالمية لمنع الحروب وارساء اسلام . اذ استخدمت القوتين الاعظم حق الاعتراض (الفيتو) لتعطيل القرارات التي لاترضى عنها خلال سنوات الحرب الباردة (1945 – 1990) 279 مرة[7].

(6)استخدام الاعلام لاثارة الرأي العام العالمي ضد الخصم ، واتهامه بالسعي للاستعمار والتوسع ، والدعاية الايدلوجية ، والتفاخر بالانجازات الحضارية والتكنلوجية وغزو الفضاء لكسب ولاء الشعوب المهيمن عليها من جانب الخصم .

وقد افضى هذا الوضع الى تاكيد اعتماد الاقطاب لاستراتيجية الهيمنة على الامم الصغيرة ودولها، الى جانب مقومات ستراتيجية اخرى ، مثل: سباق التسلح التقليدي والنووي والصاروخي (وما يتعلق بها من مفاوضات واتفاقيات)، سباق التطور والانتاج الصناعي والتكنلوجي ،،سباق التنمية والتطور الاقتصادي ، سباق الاستثمارات الانتاجية العالميةواستغلال الموارد الطبيعية في العالم ، سباق التطور الاجتماعي والثقافي والتعليمي ، وغيرها . ولعل ابرز السياسات والتكتيكات الناتجة عن ستراتيجية الهيمنة على الامم الصغيرة ، هي :

1-دفع الدول الصغيرة الموالية الى شن الحروب المحدودة ضد العدو او اتباعه ، وهو ما اصطلح عليه " الحرب بالنيابة " ، وتغذيتها بالقروض والسلاح والمستلزمات .
2-تجميع الامم الصغيرة في احلاف سياسية وعسكرية تنظمها وترعاها الدولة القطبن ضمن سباق ستراتيجي عالمي لنيل السبق الجيوبولتيكي او التوصل الى التوازن .

3-استخدام الدول الكبرى لوسائل التآمر داخل الامم الصغيرة بتنظيم العملاء واحداث الانقلابات واثارة النزاعات التعصبية وحتى الحروب الاهلية بهدف اضعاف قدرة الامة وبالتالي خضوعها للهيمنة الخارجية .

4-خلق بؤر توتر ومشاكل مؤجلة داخل الامة الواحدة او بين مكوناتها ، وفيما بين الامم الصغيرة المتجاورة، كي لا تتحقق حالة الاستقرار السياسي التي تقوي الارادة الحرة القرار المستقل للدولة الصغيرة .

ومع تعدد مقومات الحرب الباردة وسياساتها واوجه نشاطاتها وتحول مراحلها من الردع النووي الى التعايش السلمي ثم الى الوفاق الدولي ،فان الابرز فيها كان التنازع والتساوم على اخضاع الامم الصغيرة والهيمنة على دولها وضمها الى احلاف سياسية وعسكرية موالية ، واستخدام اراضيها كقواعد وزجها في حروب داخلية او محلية او اقليمية ودفعها لانفاق مواردها على التسلح والصراع السياسي . وتدفع الدول الصغيرة الساعية للنمو الثمن غاليا من ضحاياها ومواردها ومستقبلها ،اذ ان الدول العظمى تريدها ان تبقى على ما هي عليه من تشتت وتوزع واختلاف ،ذلك للحفاظ على الوضع القائم[8]. بينما شرعت هي لابعاد خطر الحرب بينها باتفاقيات نزع التسلح وتحديد انتاج الاسلحة الذرية وانتشارها ، ومديات واعداد الصواريخ البالستية ، وذلك في اواخر مراحل الحرب الباردة التي دعيت بالوفاق والانفراج .

لقد وقعت امم وشعوب ودول ما اطلق عليه " العالم الثالث " تميزا عن القوتين الاعظم وحلفاءها الكبار ، الكثير من الماء والخسائر في خضم صراعات الحرب الباردة ، فقد قسمت المانيا ودمجت اخرى رغم ارادتها في اوربا . وفي اسيا استنزفت الحرب الاهلية كمبوديا وكوريا ولاؤس وفيتنام وباكستان وافغانستان . وساءت حالة من الاضطراب السياسي والانقلابات والصراع الاقليمي في ايران وتركيا والعراق وسوريا ولبنان واليمن ودفع الشعب الفلسطيني والدول العربية المجاورة له ثمنا كبيرا من ابناءها ومواردها باقامة دولة اسرائيل على ارض فلسطين وتشريد شعبها . وتم التلاعب السياسي ودعم الانقلابات والصراعات العرقية في شمال افريقيا ووسطها وجنوبها . وفي امريكا الوسطى والجنوبية حوصرت كوبا من جانب الولايات المتحدة التي قامت ايضا باعداد الانقلابات في الارجنتين وتشيلي وبوليفيا وغيرها ضد الحكومات المنتخبة لانها ذات نهج تقدمي اويساري ، ودفعت شعوب صغيرة في امريكا الوسطى الى انتهاج اساليب الكفاح

المسلح ضد السلطات الدكتاتورية المدعومة من واشنطن ، اي بمعنى اخر حرب اهلية بخسائرها على كافة الاصعدة .

واذا كان ماتقدم يتصدى للصعيد السياسي فان الصعيد الاقتصادي كان يتمثل في الصراع على المواد الاولية والاسواق والتحايل على الدول الفقيرة لسلبها موادها الاولية والهيمنة على اسواقها . ولم تترك السياسات الاقتصادية للامم الصغيرة بشكل تحددها اختياراتها، بل اقامت الدول العظمى رفاهها الاقتصادي والاجتماعي واستقرارها السياسي على حساب مستقبل الاخرين من الدول الصغيرة من الدول الصغيرة والتي تشكل الجزء الاعظم من المجتمع الدولي الذي يمكن ان يكون سببا في التقدم او الفناء[9].

لقد تم في عصر الحرب الباردة التلاعب بمصائر الامم والدول الصغيرة كاوراق مساومات تطرح على الطاولة ثم تزاح وقد تلقى في سلة المهملات من جانب العمالقة والجبابرة التي يطلق عليها الدول العظمى ، فهل تغير الامر بعد انتهاء هذه الحرب ، وهل رأفت العمالقة بالصغار؟ ام بقت الاحوال على ما عليها من استغلال وهيمنة ودفع باتجاه الصراعات بالنيابة ؟

ثالثا : عصر ما بعد الحرب الباردة او عصر القطب الواحد

منذ الثمانينات بدأ التراجع يشمل قطاعات عديدة في الاتحاد السوفيتي ، ابرزها طبيعة النظام الحاكم والنخبة الحاكمة ، والسياسة الدولية ، والتطور التكنلوجي والاوضاع الاقتصادية والاجتماعية . وقد تضرر كثيرا بالحرب في افغانستان التي احتلها عسكريا وانهزمت في حربها الاهلية مقابل القوى الدينية التي دعمتها الولايات المتحدة ربما كرد على الدعم السوفيتي لفيتنام التي انهزمت الولايات المتحدة المتدخلة عسكريا في حربها الاهلية في الستينات والسبعينات .ومع ان الروس وامريكان قد تضررتا بهذين الحربين فان الدولتين الصغيرتين،فيتنام وافغانستان، قد تضررتا بشكل جسيم لم يستطيعا معه العودة الى اوضاعهما ما قبل الحرب وتراجعا حضاريا بشكل كبير . هكذا وبعد الانهيار السريع للاتحاد السوفيتي وتفككه بين أواخر عام 1989 وعام 1991[10] الى دولة كبيرة هي روسيا الاتحادية التي تضم 21 جمهورية ، واستقلال 15 جمهورية لقوميات مختلفة في شمال وغرب روسيا وجنوب القوقاز ووسط اسيا عنه، ومنها جورجيا ، توقع العالم ان يخرج من حالة الحرب الباردة واساليبها التي تخلق المشكلات والحروب الداخلية في الاقاليم والدول الصغيرة وتكون على حساب شعوبها. غير ان رغبة الولايات المتحدة في اعادة ترتيب العالم سياسيا لتكون مهيمنة عليه اصطدم بالنزعات القومية للدول الكبرى الاخرى وعلى الاخص روسيا والصين اللتان بذلتا جهودا للحفاظ على حلفائهما وعلى الاخص الدول الصغيرة

المجاورة لها. ولم يلبث الامر كثيرا حتى صنعت عملية تفتيت يوغسلافيا الاتحادية الموالية للروس لاسباب الارث الايدلوجي واسباب عرقية ودينية ، ففي عامي1991 و 1992اعلنت قوميات الكروات والمقدونيين والسلوفين والبوسنيين_الهرسكين استقلالهم عن القومية الاكبر في يوغسلافيا أي الصرب وبدعم غربي ، وقد رفض الصرب بدعم من روسيا هذا واعلنوا الحرب على كرواتيا والبوسنةوالهرسك فتدخل الغرب باسم الامم المتحدة حيث هزم الصرب وتكرر الامر عام 1999 عند اعلان مقاطعة الحكم الذاتي كوسوفو التي ينتمي سكانها للاصل الالباني استقلالها،اذ قصفت يوغسلافيا(صربيا) من جانب حلف الاطلسي. ومن الطبيعي ان نتائج هذه الحروب الاهلية كانت وبالا على شعوب المنطقة وعلى تطورها وتنميتها ومستقبلها،الى جانب الاف الضحايا من قتلو في الحروب وفي عمليات التطهير العرقي.

وخلقت مشاكل وحروب بين اذربيجان وارمينيا ، وكثرت المغريات لدول اوربا الشرقية السابقة وعلى الاخص المجاورة لروسيا لادخالها في الناتو اونشر صواريخ دفاعية امريكية فيها،تلك الخطوة التي تعترض عليها روسيا بشدة وتجيب عليها بالتهديد بنشر صواريخ على حدودها الغربية وجمهورية روسيا البيضاء الموالية لها. وخلقت مشكلات بين روسيا واوكرانيا، واجرت الولايات المتحدة قواعد جوية بدعوى افغانستان في جمهوريات اسيا الوسطى ، فردت روسيا بانشاء حلف دفاعي مع هذه الجمهوريات باسم "منظمة الدفاع الجماعي " .وسار الامر على هذا المنوال في التنافس على تسليح روسيا للهند وامريكا للباكستان . وكذا الامر كان مع الصين في محاولات ضرب حليفتها كوريا الشمالية او تسليح تايوان ومحاولة اعلانها كدولة مستقلة وهو ماتعارضه الصين . وكان ابرز ما يعتبر من فعاليات الحرب الباردة دخول الولايات المتحدة في بداية القرن الجديد كمحتل عسكري لافغانستان والعراق لاخضاعهما لهيمنتها، وتهديدها لكوريا وايران وسوريا وليبيا باحتلالها عسكريا مما حدا بليبيا لتغيير سياساتها والدخول تحت مظلة الهيمنة الامريكية ، بينما لاتزال الدول الثلاث الاخرى تحت طائلة التهديد والابتزاز والعقوبات السياسية والاقتصادية الامريكية .

وبذلك لم يتخلى القطب الاكبر(الولايات المتحدة) ولا اقطاب الدرجة الثانية من الحلفاء او من المناوئين كروسيا والصين عن كثير من مرتكزات الحرب الباردة وسياساتها رغم اصرارهم على انتهاء هذه الحرب وستراتياجياتها بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1990 وانتهاء الصراع الايدلوجي . فماتزال ستراتيجية الهيمنة والتحكم بحياة الامم الصغيرة ومصائرها قائمة يمارسها القطب الاكبر والاقطاب الاخرى الموالية والمعارضة وما يجر ذلك من صراع بالنيابة بين هذه الامم،

وكذلك خلق المشاكل والمنازعات داخل الدولة الواحدة والذي تعتمد اطرافه بشكل واضح على دعم الاقطاب الكبار . وكذا استمرت سياسة بناء الاحلاف السياسية والعسكرية رغم غياب المبرر الستراتيجي والاهداف والعدو الواضح . وهذا ما ينطبق على اوربا بشرقها ووسطها وغربها وبلقانها، وامريكا الوسطى واللاتينية، وافريقيا بشمالها وغربها ووسطها وقرنها الغربي وجنوبها، وآسيا بوسطها اومايسمى بقلبها وبشرقها الاوسط وقارتها الهندية وصينها ومابينهما وجنوبها الشرقي .

ويمكن تفسير هذه الحالة من استمرار غلبة مفاهيم الحرب الباردة في العلاقات الدولية برغبة (الولايات المتحدة) القطب الاكبر في ابقاء قيادتها وهيمنتها بل ومفاهيمها لتشمل العالم اجمع الذي تريد اعادة ترتيبه سياسيا واقتصاديا وثقافيا على وفق اهدافها وتخطيطها. والسعي الحثيث من جانب الاقطاب الثانوية للمنافسة والاحتفاظ بهوامش من الارادة الحرة والقرار المستقل لترضي مشاعرها القومية ورغباتها في عدم الخضوع التام لمخططات القطب الاكبر وستراتيجياته وهيمنته . ويتضح هذا الصراع جليا في محاولات الولايات المتحدة الهيمنة على الدول والامم الصغيرة التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفيتي السابق وعلى الاخص تلك التي تحيط بروسيا وكانت ضمن الاتحاد السوفيتي السابق.في مقابل تمسك روسيا بهيمنتها على هذه الامم والدول الصغيرة متذرعة بامنها ومجالها الحيوي .

رابعا : نموذج اوسيتيا الجنوبية ـ جورجيا

ويستمر هذا الصراع والتنازع على مناطق النفوذ بين الولايات المتحدة وروسيا في دول اوربا الشرقية، كما حدث في تفتيت يوغسلافيا المتعددة القوميات الى دول صغيرة عبر حروب اهلية قذرة وماساوية، او في التصارع على ضم بولندا وجيكيا واوكرانيا وغيرها الى احلاف موالية للولايات المتحدة او روسيا، او نشر الصواريخ البالستية او الصواريخ المضادة لها على اراضيها. وكذا الصراع على جمهوريات وسط اسيا ودول جنوب القوقاز. ولناخذ مثلا تطبيقيا لهذا الصراع ذلك الذي حدث ويحدث على ارض جمهورية جورجيا الاتحادية والتي تقع الى جنوب القوقاز الروسي وتضم الى جانب القومية الجورجية الكبيرة قوميات صغيرة من الابخاز والاوسيتين وغيرهم، وهذه القوميات الصغيرة متميزة جغرافيا اضافة الى التميز الثقافي عن الاغلبية الجورجية .

فمنذ تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال جورجيا مع بقاء نظامها بقيادة استبدادية وموالية لروسيا ابدت الولايات المتحدة والغرب تنديدا واسعا بالسلطة الجورجية الاستبدادية وتعاطفهم الواسع مع الاقليات التي تظمها جورجيا مثل الابخاز في الشمال الغربي المطل على البحر الاسود رغم ان حاكمها دكتاتور يستخدم الاقليم كقاعدة للتهريب الدولي، وقد اعلنت ابخازيا استقلالها مدعومة من الغرب وانتصرت بهذا الدعم في الحرب التي اعلنتها عليها جورجيا المدعومة من موسكو. ودعم الغرب ايضا الاوسيتيين القاطنين في اقليم يقع في شمال وسط جورجيا المطالبين بسلطات فدرالية اكبر او الاستقلال . وكذا بالنسبة للاقلية الاسلامية(أهيسكا) في اقليم أجاريا(باطومي) الواقع في جنوب جورجيا على الحدود مع تركيا والبحر الاسود. بينما كان الروس داعمين لحكام جورجيا ومعادين لحقوق الاقليات وتوسيعها.

وفي عام 2003 استطاع الحزب الحاكم الموال لروسيا الفوز بانتخابات وصفتها المعارضة بالمزورة ، وساعدت الولايات المتحدة والغرب بحملة اعلامية وسياسية كبيرة في ترتيب مظاهرات واعتصامات داخل جورجيا اطلق عليها "الثورة الوردية" ادت لاسقاط البرلمان المنتخب وحكومته، وتولي المعارضة المالية للغرب الحكم في عملية قال عنها منتقدوها انها تغليب لدمقراطية فوضى الشارع على دمقراطية صندوق الاقتراع . ومنذ هذا التغير في النخبة الحاكمة لجورجيا انقلب الامريكان من مناصرين لحقوق الاقليات الى مدعمين للمركزية الجورجية، بينما انقلب الروس الى مناصرين لحقوق الاقليات ومتعاطفين مع مشاعر الاوسيتين القومية بشكل يدفعهم لتحريك جيوشهم دفاعا عن هذه الحقوق التي يريد الجورجيين مصادرتها. وهو ما توضح عندما تمادى سيكاشيفلي حاكم جورجيا في تصديقه للدعم الامريكي والغربي فشن هجوما عسكريا في آب(اغسطس) 2008 على اوسيتيا الجنوبية لاخضاع انفصالييها للمركز(تبليسي)، فلم يكن من الروس الا الاحساس بالخطر الماثل من هذا التصرف باعتباره سيمثل انتكاسة لروسيا في دعم حلفائها الاقرب مما يخيب ظن الابعد فيهم وباعتباره اختبارا من الولايات المتحدة لرد فعل روسيا على اخضاع حلفاء لها وعلى حدودها ، ما كان منهم الا دعم الاوسيتين الجنوبين بالسلاح وبضمهم مع ابخازيا الى الاتحاد الروسي، وتحريك قواتهم لا لتدحر وتطرد قوات جورجيا من اراض اوسيتيا بل لتحتل اجزاء من جورجيا. ولم تستطع احتجاجات الغرب انقاذ ساكاشيفلي وقواته من الهزيمة التي تجرعها، وربما ظن ساكاشيفلي ان الغرب سيتدخل لصالحه عسكريا ضد الروس. وهذا ما اضعف شعبيته وجعل معارضيه يستغلون عيدا شعبيا ومناسبة استبداد سابقة لتعبئة اوساط واسعة من الجماهير هذه الايام (نيسان 2009) اتنظيم مظاهرات واعتصامات واضرابات

تتهم ساكاشيفلي بالدكتاتورية وترفع لافتات وشعارات تقول ماذا جنينا من هذه الحروب الاهلية بين القوميات الصغيرة الاقليات المتجاورة والمتعايشة تاريخيا غير الضحايا والخسائر المادية والاقتصادية.

خاتمــة

تلاعبت الامم الكبيرة بموارد وحياة ومصائر الامم الصغيرة منذ بداية التاريخ المكتوب وتشكيلات الامبراطوريات القديمة . ولم تتغير هذه الاستراتيجية وسياساتها في العصور الوسطى وامبراطورياتها الدينية المقدسة ،حيث كانت تجبر الامم والشعوب الصغيرة على تمويل حروب الامبراطوريات من مواردها وانتاجها وارواح ابنائها. وبعد عصر التنوير والنهضة الاوربية ودخول العصر الحديث بدأ عصر الاستعمار الكولنيالي الذي حول الامم الصغيرة ودولها الى مستعمرات تدار من جانب الدولة الكبيرة المحتلة، وتقدم موادها الالية من المعدنية والزراعية لشركات المستعمر الكبيرة وتفتح اسواقها لاغراق بضائع المستعمر،وتقدم ابنائها كجنود في جيش المستعمر ليستخدمهم في الحروب لاستعمار امم صغيرة مجاورة او للحرب مع القوى المنافسة على المستعمرات والاسواق ومناطق النفوذ. وفي الحرب العالمية الاولى والثانية وما بينهما استمر استغلال الدول العظمى للامم الصغيرة والتلاعب بمصيرها وزجها في صراعات وحروب ضمن تحالفاتها ،او بخلق الحروب المناطقية للدولة الصغيرة مع مثيلاتها ممن يجاورها،وحتى في الحروب الاهلية بتحريض القوميات او الطوائف او الاقليات داخل الدولة الصغيرة ضد بعضها .

وبعد نهاية الحرب الثانية وبزوغ عصر التحرر والاستقلال وافول عصر الاستعمار الكولنيالي، استمرت ستراتيجية الهيمنة والتلاعب للدول الكبرى ولكن باشكال جديدة يغلب عليها الطابع السياسي والاقتصادي. وكان دخول العالم الى عصر صراع القطبين الاعظم(الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) عاملا اساسيا في التنازع على مناطق النفوذ وبالتالي الهيمنة الاستراتيجية على الدول الصغيرة وفرض التبعية السياسية والاقتصادية عليها، واللجوء لتحقيق ذلك الى سياسات المؤامرات والانقلابات والحروب الداخلية او الاقليمية فيما بين الدول الصغيرة التابعة لاحلاف متباينة اقامتها الدولتين الاعظم وحلفائها الكبار للتلاعب بمصائر الامم والشعوب الصغيرة والفقيرة .

وبعد نهاية الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفيتي منذ حوالي عقدين من الزمن،استمرت ستراتيجيات الهيمنة السياسية والاقتصادية للدولة الاكبر(الولايات المتحدة) والدول الكبرى الثانية وبالتالي الصراع على مناطق النفوذ لتامين التبعية السياسية وبالتالي المواد الاولية والاسواق. ولم تتوان الدول الكبرى هذه على اتباع اساليب الحرب الباردة رغم انتفاء التبرير الايدلوجي للتنازع على مناطق النفوذ والدول الصغيرة وذلك بخلق المشاكل والحروب الخارجية والداخلية بغية اخضاعها لهيمنتها او

لسلبها من قوى كبرى اخرى. وهكذا قسمت الكثير من الدول الصغيرة على اساس قومي ،وخلقت بينها مشاكل وصراعات ادت الى حروب طاحنة فيما بينها، او فيما بين اجزاء الدولة الصغيرة الممزقة .

ومن تلك الحروب الاهلية التي دفع اليها دولة صغيرة وفقيرة، تلك التي حدثت بسبب الرغبة الامريكية في جعل الدول الصغيرة المجاورة لروسيا(والتي استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي) تابعة لهيمنتها واصرار الروس على التمسك بهيمنتهم على هذه الامم، وهي الحروب الاهلية في جمهورية جورجيا الواقعة جنوب القوقاز. فقد ادى تاجيج النزعات القومية للاقليات الى خوض عدة حروب اهلية بين جورجيا التي تدعم حكومتها الولايات المتحدة وبين الاقليمين التابعين لها ابخازيا واوسيتيا الجنوبية اللتان تدعمها روسيا. وكان اخرها الحرب التي قامت بين جورجيا واوسيتيا ، وتم فيها استخدام كافة اساليب ومناورات الحرب الباردة بين الامريكان والروس، والتي انتهتحاليا الى تفتت الدولة والعداء بين القوميات والخسارة للطرفين المتحاربين على صعيد الامكانيات المادية والبشرية والتنمية والتطور. ويؤكد هذا النموذج ان الدول الكبرى وبعد هذا التطور الانساني والحقوقي الكبير في مطلع القرن الواحد والعشرين ما تزال متمسكة بستراتيجية تنازع مناطق النفوذ او على الاصح التلاعب بصائر الامم الصغيرة ودولها ،وبتنميتها وتطورها ومستقبل ابنائها دون اي وازع اخلاقي او انساني.

المراجـــع

(1) انظر :- سعيد عبد الفتاح عاشور(د.) اوربا في العصور الوسطى (التاريخ السياسي/ج 1)، القاهرة :مكتبة الانجلو المصرية ، 2007 .

- تـاريخ اوربـا القـديم والوسـيط فـي الموسـوعات العلميـة، ومنهـا موسـوعة "ويكيبيـديا" علـى الانترنت.

(2) انظر : ج. ل. ليدل هارت ،الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، بيروت: دار الطليعة ، ط2 ،1978

(3) انظر : - جلال يحيى ، التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر ، الاسكندرية-مصر: المكتب الجامعي الحديث ، 1983 .

- فاضل حسين(و)كاظم هاشم نعمة ، تاريخ اوربا الحديث المعاصر، الموصل-العراق : مكتبة دار الكتب ، 1987 .

- علي حيدر سليمان، تاريخ الحضارة الاوربية الحديثة ، بغداد: دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع ، 1990 .

(4) انظر : - حسين عبد الحميد ، الاستعمار في القرن العشرين ، الاسكندرية- مصر :الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1975 .

- المهاتما غاندي ، هذا مذهبي ، بيروت : المكتب التجاري للطباعة ،1959.

(5) ادونيس العكرة(د)، من الدبلماسية الى الاستراتيجية ،بيروت: دار الطليعة،1981، ص47 و54 .

(6) انظر : كاظم هاشم نعمة(د.)، الوجيز في الاستراتيجية ، بغداد : بلا ناشر ، 1988.

(7) بطرس غالي ، خطة للسلام ، نيويورك : منشورات الامم المتحدة ، 1992 ،ص7 .

(8) حسن البزاز(د)، القوى العظمى بين شريع الغاب وصراع الفيلة ، بغداد:دار الشؤون الثقافية ، 1988 ، ص 16 .

(9) المرجع السابق ،ص 61 .

(10) مايكل جي.هوغان ، نهاية الحرب الباردة:مدلولاتها وملابساتها، ترجمة: محمد اسامة القوتلي، دمشق : وزارة الثقافة ، 1998 ، ص 22-23 .